فصلية محكمة

فصول

مجلة النقد الأدبي

النقد الثقافي .. إلى أين؟

المجلد (٣/٢٥) * العدد (٩٩) * ربيع ٢٠١٧

تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

فـــــصـــــــول

مجلة النقد الأدبي

فصـــلية محكمة

تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

أسسها صلاح عبدالصبور عام ١٩٨٠م

برئاسة تحرير عـــز الديـــن اسماعيل

المجلد (٣/٢٥) * العدد (٩٩) * ربيع ٢٠١٧

محـور العدد

النقـــد الثقـــافي.. إلى أيـــن؟

مستشـارو التـحريـر

آمـــنـــة بـلـعـلي	الـجـزائـر
جـابـر عـصـفـور	مصـر
حـسـين مـحـمـود	مصـر
سـعـد الـبـازعـي	السعـودية
سـعـيـد بـنـكَـراد	المـغـرب
سـلـوى رشـاد	مصـر
صـلاح فـضـل	مصـر
عـبـد الـسـلام المسـدي	تـونـس
عـز الـديـن المـنـاصـرة	فلسـطـين
مـحـمـد عـبـد المـطـلـب	مصـر
محـمـد محـمـد يونـس عـلي	لـيـبـيـا
المـخـتـار كـريـم	تـونـس
مـكـارم الـغـمـري	مصـر

فصلية محكمة

فصول

مجلـة النقـد الأدبـي

رئيـس مجلـس إدارة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

هـيـثـم الـحـاج عـلي

رئيس التحـريـر

محمـد فكـري الجـزار

مـديـر التحريـر

محـمـد إبراهـيم عبدالعـال

هيـئة التحريـر

البيومـي محمـد عـوض

سنـاء عبـد العـزيـز

الضـوي محمـد الضـوي

طـارق مهـنـى

نبـيل محمـد صغـير

تصحيـح لـغوي

محمـد مرتـضى صـادق

سكرتير التحرير

آمـال صـلاح

سكـرتير فنـي

حـنـين سـالـم

الإخراج الفنـي وتصميم الغلاف

عاصـم محمـد حسـن

تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

قواعد النشر

ترحب المجلة بنشر البحوث والدراسات العلمية الرصينة، وفقًا للقواعد التالية:

١. أن يكون موضوع البحث في إطار محور العدد.
٢. أن يكون البحث مبتكرًا وأصيلًا ولم يسبق نشره بأي شكل من الأشكال، مطبوعًا أو بصورة إلكترونية.
٣. ألا يكون قد تم التقدم بالبحث للنشر في مطبوعة أخرى، أو تم التقدم به لمؤتمر علمي أو أُلقي في ندوة.
٤. أن يتبع البحث الشروط العلمية والمنهجية في البحث العلمي، على أن تدرج الهوامش في آخر الدراسة.
٥. تُكتب الأعلام الأجنبية بلغتها الأصلية بالإضافة إلى مقابلها باللغة العربية.
٦. لا يزيد طول البحث المؤلف عن ١٠ آلاف كلمة.
٧. بالنسبة للدراسات والبحوث المترجمة فيشترط أن تكون حديثة، وغير مترجمة من قبل، وألا يزيد طولها عن ١٢ ألف كلمة، على أن يُرفق البحث في لغته الأصلية مع الترجمة، بالإضافة إلى سيرة ذاتية للمؤلف الأجنبي.
٨. تقدم البحوث في صورتها النهائية كنسخة إلكترونية على برنامج (Microsoft word)، وبالنسبة للبحوث التي تحتوي على صور أو رسوم توضيحية، تُرسل نسخة منها بصيغة (pdf)، بالإضافة إلى نسخة (Microsoft word).
٩. يُرسل مع البحث المقدم للنشر سيرة ذاتية للمؤلف، مع ملخصين للبحث أحدهما باللغة العربية والآخر باللغة الإنجليزية، ويلتزم الباحث بالتوقيع على وثيقة الملكية الفكرية وإرسالها مرفقةً بالبحث المقدم للنشر.
١٠. تخضع البحوث والدراسات المقدمة للنشر للتحكيم العلمي على نحو سري، ويلتزم الباحث بتنفيذ ملاحظات وتوصيات لجنة المحكمين على بحثه حتى يمكن نشره.
١١. المواد التي تقع خارج محور العدد، أو التي يتم رفضها من قبل المحكمين يتم إعلام أصحابها، حتى يتسنى لهم تقديمها للنشر في مكان آخر.
١٢. ترسل المواد المقدمة للنشر على البريد الإلكتروني للمجلة: FUSUL80@hotmail.com، وعلى البريد الإلكتروني لرئيس التحرير: 1000a1957@gmail.com.
١٣. المجلة غير ملزمة برد المواد المرسلة إليها، سواء نُشرت أم لم تنشر.

* المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي أصحابها، ولا تعبر بالضرورة عن هيئة التحرير أو عن الهيئة التى تصدر عنها المجلة.

• الأسعار خارج مصر:
٥ دولارات، أو ما يعادلها من عملات أخرى.
• الاشتراكات من الداخل:
عن سنة (أربعة أعداد): ١٢٠ جنيهًا، شاملة مصاريف البريد.
تُسدد الاشتراكات بحوالة بريدية حكومية.
• الاشتراكات من الخارج:
عن سنة (أربعة أعداد): شاملة مصاريف البريد.
٤٠ دولارًا للبلاد العربية.
٥٦ دولارًا لأوروبـــــا.
٥٨ دولارًا لأمريـــــكا.
تُسدد الاشتراكات عن طريق شيك مقبول الدفع.

• تُرسل الاشتراكات على العنوان التالي:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، إدارة المجلات الثقافية، مـجـلـة فـصـول، القاهـرة، كورنيش النيل، رملة بولاق، جمهورية مصر العربية.

• تُرسل طلبات الاشتراك على البريد الإلكتروني لإدارة المجلات الثقافية: magazines@gmail.com

• رقم الإيداع:
١٩٨٠/ ٦١٠٠
ISSN ١١١٠-٠٧٠٢

الإعلانات : يتفق عليها مع إدارة المجلات

فصول
فصلية محكمة
مجلة النقد الأدبي

وثيقة ملكية فكرية

أقر أنا ..... والموقع أدناه بأنني (المؤلف /المترجم) الفعلي لبحث:.....

وأقر بأنني اطلعتُ على سياسات النشر الخاصة بالمجلة، وأن البحث لم يتم نشره من قبل بأية صورة من الصور (مطبوعًا أو إلكترونيًا)، وبأنه ليس مقدمًا للنشر إلى أية جهة أخرى، ولم يتم إلقاؤه في ندوة أو تقديمه لمؤتمر علمي، وبأنه ليس جزءًا من كتاب منشور. وألتزم - إذا ثبت لهيئة تحرير المجلة عكس ما تقدم - بسداد كل النفقات والمصروفات التي تحملتها المجلة بصدد إجراءات تحكيم البحث ونشره، كما ألتزم بسداد هذه النفقات في حالة سحبي للبحث وعدم استكمال إجراءات نشره بالمجلة، هذا بالإضافة إلى ما تراه هيئة تحرير المجلة من تدابير أدبية.

الاسم كاملًا: .....
الوظيفة/اللقب العلمي:..... /البلد:.....
جهة العمل وعنوانها: .....
العنوان البريدي: .....
البريد الإلكتروني:.....
التوقيع:...../ التاريخ: .....

*** ملحوظة: يتم التوقيع على هذه الوثيقة بخط اليد وتُرسل مرفقةً بالبحث المقدم للنشر.**

تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

المحتويات

أما قبل ..... رئيس التحرير ١١

دراسات

ما النقد الثقافي؟ ولماذا؟ ..... عبدالنبي اصطيف ١٥

المقاربة الأنثروبولوجية للأدب ..... مبروك دريدي ٣٠
(النص والثقافة)

الكون السيميائي وتمثيل الثقافي ..... عبدالله بريمي ٤٧
(يوري لوتمان نموذجًا)

ترويض المتخيل ..... مصطفى الغرافي ٦٨
(السرد العجيب وأنظمة الثقافة)

الهوية بين التقويض والكبح..... نادية هناوي سعدون ٩٢
(استبصار نقد ثقافي في أركيولوجيا ميشيل فوكو)

النقد الثقافي السلافي.....عز الدين المناصرة ١٠٨

النقد الثقافي بين عبدالله الغذامي ويوسف عليمات ..... عمر زرفاوي ١٣٩
(معضلة المناهجوية والتأويل المغلول)

صورة المثقف بين رسالة الفكر ومسئولية النقد ..... أحمد الواصل ١٥٠
(غالي شكري نموذجًا)

أوميروس العربي ..... عبدالله إبراهيم ١٨١
الأعمى في بلاد المبصرين

بلاغة التهميش السياسي: الشيعة نموذجًا ..... عمر عبدالواحد ١٩٦
(قراءة ثقافية)

ترجمات

الثقافوية ..... جون ستوري ٢١٣
ترجمة: السيد إمام

الدراسات الثقافية .....جون باتنز ٢٣٦
(التاريخ – المادة – المنهج – الأهداف) ترجمة: لطفي السيد منصور

مدرسة فرانكفورت والدراسات الثقافية البريطانية ..... دوجلاس كلنر ٢٤٩
(الصيغة المفقودة) ترجمة: كرم أبو سحلي

الثقافة بوصفها نصًا (مدخل إلى نظرية يوري لوتمان) ..... أليكسي سيمننكو ٢٧٩
ترجمة: سمر طلبة

الثقافة والشعرية الثقافية ..... ستيفن جرينبلات ٣٠٣
ترجمة: معتز سلامة

التاريخانية الجديدة والدراسات الأدبية ..... موكيش ويليامز ٣٢٨
ترجمة: سناء عبدالعزيز

الثقافة والتأويل في نظرية إمبرتو إيكو .....آنا ماريا لوروسو ٣٥٨
ترجمة: أحمد الشيمي

في النقد الثقافي للحداثة ..... إيريك لورنس غانز ٣٩٢
ترجمة: أحسن دواس

العوالم الأخرى: إدوارد سعيد والدراسات الثقافية ..... ريكاردو ميجيل ألفونسو ٤٠٧
ترجمة: رانية خلاف

النظرية الأدبية في عصر العولمة ..... إيهاب حسن ٤١٧
ترجمة: محمد سمير عبدالسلام

تطبيقات

النسق المضمر في نوادر جحا ..... نعيمة بولكعيبات ٤٢٩

البنيات الثقافية المتصارعة ..... محرز راشدي ٤٤٦
قراءة ثقافية في نصوص شعرية حديثة

جمالية التشكيل الرمزي والأسطوري في شعر عبدالستار سليم ..... سيد علي السيد الدنقلاوي ٤٦٢

صراع الهويات والذوات ..... صليحة شتيح ٤٧٨
في رواية القلاع المتآكلة» لـ محمد ساري

الملف: النقد النسوي

موجة النقد النسوي ما بعد الحداثة في فرنسا ..... محمد بكاي ٤٩٥
(تجارب الكتابة الأنثوية وآفاقها)

تغير مكانة المرأة في الأدب النسائي المصري ..... محمد سعيد فرح ٥٢٦

الجسد الأنثوي والأهواء ..... أسماء معيكل ٥٦٢
(دراسة ثقافية)

مفهوم الحريم في تمثيلات الغرب ..... ممدوح فراج النابي ٥٨٣
(قراءة ثقافية في أدب فاطمة المرنيسي)

قراءات حرة

الظاهرة المسرحية عند رولان بارت ..... ياسين سليماني ٦٠٥
كارمن بين الأوبرا والقصة ..... بهاء بن نوار ٦١٥

متـــابـعـــات

عروض كتب

الخطاب النقدي وتشييد المغايرة ..... عبدالرحمن التمارة ٦٣١
قراءة في كتاب «سرديات ثقافية: من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف»

آليات القراءة ونسق الفهم في كتاب .....محمد الكحلاوي ٦٤٤
«خطاب الجنون»

كتاب: النقد الثقافي ..... عبدالرزاق مصباحي ٦٥٨
من النسق الثقافي إلى الرؤيا الثقافية

كتاب: فهم فردينان دو سوسير وفقًا لمخطوطاته ..... خالد فهمي ٦٦٤
(مراجعة علمية نقدية)

كتاب: السفر إلى ممالك الخيال – ملامح وأصوات في الرواية العربية .....سوسن ناجي رضوان ٦٧٤

رسائل جامعية

منهجية النقد الثقافي بين النظرية والتطبيق .....محمد إبراهيم السيد عبدالعال ٦٨٣
الأنساق الثقافية في الخطاب الروائي لعبدالله العروي ..... ميلود الهرمودي ٦٩٦

ببليوجرافيا

ببليوجرافيا عربية ..... تقى المرسي ٧٠٣
ببليوجرافيا إنجليزية .....محمد ماهر بسيوني ٧١٢

English Section

Gender and Sexuality in «Written on the Body»..... Dina Nabil ....

Abstracts

المحاور القادمة

• العرفانيات في اللسانيات والنقد	صيف ٢٠١٧
• آفاق البلاغة الجديدة	خريف ٢٠١٧
• الأدب التفاعلي	شتاء ٢٠١٨

دراسات

ما النقد الثقافي؟ ولماذا؟

عبدالنبي اصطيف*

«ليست الدراسات الثقافية شيئًا واحدًا. ولم تكن في يوم شيئًا واحدًا»

ستيوارت هول[1]

«الدراسات الثقافية هي نزعة عبر الميادين المعرفية، وليست هي ذاتها ميدانًا معرفيًا»

توبي ميلر

«بالنظر إلى كيفية استعمال الثقافة وتحويلها من جانب المجموعات الاجتماعية (العادية) و(الهامشية) لا تنظر الدراسات الثقافية للناس على أنهم مستهلكون، وإنما تراهم منتجين ممكنين لقيم اجتماعية، ولغات ثقافية جديدة»

توبي ميلر[2]

يبدو موضوع «النقد الثقافي» لبعض متابعي المشهد النقدي العربي الحديث إشكالاً مُركَّبًا complex، يمكن أن يغدو معه محورًا، بل محاور، لخلافات حادة بين أنصاره والمشكِّكين في جدواه، ومناقشات صاخبة حول وثاقة صلته بالمنتَج الثقافي العربي الحديث، وجدالاً لا ينقطع حول مشروعية إحلاله محل ضروب النقد الأخرى كالنقد الأدبي، والنقد الفني، والنقد الفلسفي وغيرها. في حين يبدو لبعضهم الآخر، وهم ليسوا بالقليل، أمرًا أبسط مما يُصوَّر، ومن ثَم فإنه لا يحتاج إلى كل هذا الصخب والضجيج والجدال. ذلك أن الكل يعرف ما النقد، والكل يعرف ما الثقافة. وكما أن النقد الأدبي نشاط فكري – يتجسد إنشاءً لغويًا – ينتسب إلى الأدب الذي يُحدِّد طبيعته ووظيفته وحدوده، مثلما يُحدِّد هويته، فهو نقد أدبي. إنه موصوف (نقد) تتحدد هويته بصفته (أدبيًا) المستمدة من واحد من أهم الفنون الجميلة هو الأدب. فذلك هو شأن النقد الثقافي، إنه نشاط فكري يتجسّد إنشاءً لغويًا ينتسب إلى الثقافة culture التي تُحدِّد بدورها طبيعته ووظيفته وحدوده، كما تُحدِّد هويته (تكرار الأسلوب بشكل متطابق) التي تُميِّزه عن غيره من ألوان النقد الأخرى، فهو نقد ثقافي Cultural Criticism، إنه موصوف (نقد) تتحدَّد هويته بصفة (ثقافيًا) المستمدة من الثقافة (القومية غالبًا) بتجلياتها المادية وغير المادية، أو المعنوية.

*أستاذ الأدب المقارن والنقد الحديث والترجمة، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة دمشق، سوريا.

غير أن ما غاب عن هذا بعضهم الأخير هو ما ينطوي عليه مصطلح «النقد» من خلافات تتصل بدلالاته المتحوّلة عبر الزمان والمكان، وما يتصل بمصطلح «الثقافة» من إشكالات محكومة بالمكان والزمان والبيئة المعرفية الخاصة به.

ذلك أن كلمة النقد كلمة خلافية خضعت عبر العصور لتطور هائل، وأفضل من تتبعها كان رينيه ويليك الذي رصد دلالاتها من العصر اليوناني إلى القرن العشرين. والحقيقة أن هذه الكلمة لم تستقر بالمعنى الذي نعرفه الآن إلا منذ قرنين تقريبًا، وحتى في القرن العشرين نجد أنها قد خضعت لإعادة نظر ومساءلات، حتى ظن الناس أنها أشمل بكثير مما نقصده بالنقد والنقد الأدبي. وبالتالي فإننا عندما نتحدث عن النقد الثقافي، علينا أن نستحضر جميع التضمنات الخلافية التي ينطوي عليها هذا المصطلح.

إن الثقافة في حد ذاتها فكرة خلافية تطورت عبر العصور، وقد نجد لها مئات التعريفات. وقد كتب الناقد الثقافي ريموند ويليامز وتلميذه تيري إيغيلتون، في مفهوم الثقافة كتابين مهمّين[٣]، أصبحا من المراجع التي لا يستغنى عنها في فهمها: طبيعةً، ووظيفةً، وحدودًا. والحقيقة أن الثقافة من أكثر المفاهيم استعصاءً على التعريف الجامع المانع؛ لأن لها معاني محكومة بسياقي الزمان والمكان، ولا يكاد يتفق عليها الناس. وأحد أخطاء أدونيس القاتلة أنه لم يفرق بين معنى الثقافة ومعنى الحضارة، فالحضارة واحدة، أما الثقافة فإنها مرتبطة بأمة معينة، وبمكان وزمان محددين، فعلى سبيل المثال هناك ثقافة عربية، وهناك ثقافة ألمانية، وهناك ثقافة فرنسية، ولكن الحضارة الإنسانية حضارة واحدة.

ولا ننسى في هذا المقام التذكير بأن النقد الثقافي انتقل إلى المشهد الأدبي العربي نتيجة تفاعل النقد العربي الحديث مع النقد الغربي؛ ولذلك فإن جميع مشكلات هذا النقد في الغرب انتقلت إلى المشهد النقدي العربي، ولكن دون وعي كاف بأية أسس معرفية؛ أي أننا أخذنا المصطلحات دون أن نتبين الأرضية التي انطلقت منها.

وفضلاً عما تقدّم فإن مصطلح «النقد الثقافي» في المشهد النقدي العربي الحديث مصطلح لا يعدو أن يكون ترجمة حرفيه للمصطلح الإنكليزي Cultural Criticism. وهو في الحقيقة نشاط أو ممارسة تمتح من مَعين الدراسات الثقافية Cultural Studies، أو هذا الضرب من الممارسات البحثية التي تبناها وروّج لها مركز جامعة برمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة The Birmingham University Centre for Contemporary Cultural Studies[٤] الذي أنشأه ريتشارد هوغارت Richard Hoggart[٥]، وستيوارت هول Stuart Hall عام ١٩٦٤، وقد غدا بؤرة للحركة النقدية التي ناهضت التعريفات النخبوية للثقافة، ورفضت الهرمية السائدة، أو بالأحرى النظرة الطبقية إلى أشكال المنتجات الثقافية، داعية إلى تدبُّرها من منظور ديموقراطي. والدراسات الثقافية –كما هو معروف من قبل القاصي والداني – هي المهاد الذي نشأ فيه النقد الثقافي وترعرع.

والمتأمل في مصطلح «النقد الثقافي» الخلافي، والمؤلَّف من شقَين، يستطيع أن يتبين بسهولة أن مكوِّنيه، أو حدّيْه – سواء أُنظِر إليهما من منظور آني Synchronic[٦]، أم من مَنظور تطوري Diachronic[٧]– ينطويان على منجم من القضايا المُشكِلة، إلى جانب أنهما حصيلة تفاعل النقد العربيِ الحديث – في مختلف أنواعه – مع «الآخر» الغربي على وجه التحديد. ومعنى هذا أن فهم هذا «الآخر» لكل من مصطلحي: «النقد»، و«الثقافة» التي ينسب إليها، وما لحق بهذا الفهم من التغيّر والتطوّر عبر الزمان والمكان سيتركان – لامحالة – تأثيرات لاسبيل إلى التغاضي عنها، عند النظر في المصطلح العربي.

لماذا النقد الثقافي؟ وهل ثمة حاجة عربية إليه؟

الجواب فيما يبدو لبعض من باتوا يضيقون ذرعًا بممارسات النقد الأدبي في المجتمعات العربية الحديثة، هو أنه استجابة منهجية طبيعية للتغيرات التي شهدتها عملية الإنتاج الأدبي والثقافي في المجتمعات العربية الحديثة والمعاصرة التي تتطلب صنفًا آخر من النقد غير النقد الأدبي Literary Criticism، وهذا الصنف هو النقد الثقافي Cultural Criticism.

ذلك أن الأدب بوصفه فنًا جميلاً، لم يعد – وكما يحاجّون بحق– ذلك الإنشاء المقروء الذي أَلِفْنَاه إِلْفَ الأتراب، ونشأنا على حبه وتقديره والاحتفاء به على النحو الذي توصي به المدارس والجامعات ومختلف المؤسسات الثقافية والإعلامية؛ فقد انفتح من جهة على مختلف الفنون الجميلة كالغناء والرقص والموسيقى والرسم والنحت والعمارة، فضلاً عن تداخله الحميم مع رصيفه فن المسرح، ووشائجه المعقدة والغنية مع الفن السابع (السينما)، وصلاته المتنامية مع وسائل الاتصال المتعددة multi–media، من خلال الحاسب الذي بات يقدم لمستخدمه مادة مقروءة ومسموعة ومرئية في آن معًا. كما أنه انفتح من جهة أخرى على العلوم الإنسانية والاجتماعية والمعارف العلمية: الطبيعية والفيزيائية والكيميائية وعلوم الفضاء والمحيطات، كما هو الشأن في أدب الخيال العلمي، على نحو بات الإلمام بهذه العلوم والمعارف من الشروط اللازبة لتذوق الأدب والاستمتاع به والإفادة منه.

وفضلاً عما تقدم؛ فقد ظهرت مؤخرًا أشكال تعبير فنية جديدة، لفظية وبصرية تنتجها فئات مهمشة أو منضوية أو مُستبعَدة أو خاضعة لألوان من التمييز الذي تسمح به بعض البنى الاجتماعية السائدة، وقد غدت هذه الأشكال ذات انتشار واسع وتأثير كبير في مختلف الفئات الاجتماعية، ولاسيما الأجيال الجديدة. مثل الأغنية الشبابية، والمسلسلات التلفزيونية، والإعلانات الإذاعية والتلفزيونية، والإعلانات الطرقية: المرئية ومتعددة الوسائط، وهتافات المتظاهرين، ولافتات الدعاية الانتخابية ... وغيرها.

إنَّ تدبّر الأدب الذي خضع لهذه التحولات، وتدبّر أشكال التعبير الفنية الأخرى لم يعودا ممكنين – فيما يرى بعضهم – من خلال النقد الأدبي الذي بات غير قادر على الإحاطة بالنص الأدبي الجديد، أو التعامل على نحو مرضٍ مع ما تنطوي عليه وجوهه المختلفة من غنى فيِ التقنيات والدلالات؛ ولذا فإن على المجتمعات العربية الحديثة أن تدع النقد الأدبي لأنه استنفد مسوغات وجوده، وغدا مجرد نشاط فكري غير مجدٍ ولا فعال في معالجة الإنتاج الأدبي العربي الحديثٍ، وأن تتبنى نقدًا آخر هو النقد الثقافي الذي يستطيع – كما يؤكد هؤلاء – أن يستجيب للظروف والشروط والمحددات الجديدة التي باتت تحكم هذا الإنتاج الجديد.

وفضلاً عما تقدّم، فإن على النقد الأدبي – في رأيهم – أن يتجاوز النص الأدبي، وأن يمضي إلى ماوراء هذا النص من عقلية أنتجته ليقع على آليات التفكير التي تحكمها، وهذا ما لا يستطيعه النقد الأدبي ولا يطيقه. ومعنى هذا أن على المجتمعات العربية الحديثة أن تدع النقد الأدبي، وتفارقه فراقًا لا لقاء بعده، وتلجأ إلى النقد الثقافي الذي يملك مفاتيح الإنتاج الأدبي العربي الحديث وأشكال التعبير الفنية الأخرى، وبالقدر نفسه يملك مفاتيح الكشف عن البنى الذهنية التي تحكم إنتاجه، وتحدد دلالاته. ومقابل أولئك الذين يودون أن يُحلّوا النقد الثقافي محل النقد الأدبي، هناك آخرون يرون أن هذا الأخير لم يستنفد أغراض وجوده، وأن مختلف وجوه القصور المنسوبة إليه إنما تعود إلى محدودية تصوّرنا لطبيعة النقد الأدبي ووظيفته وحدوده، وأن تصورًا متماسكًا ومنسجمًا داخليًا يؤسَس على

أرضية صلبة من المعرفة التاريخية والآنية بالتقاليد الأدبية والنقدية العربية، وتلك الخاصة بالأمم الأخرى، ويَفيد من التطورات الهائلة التي حققتها الدراسات النقدية في عالمنا المعاصر، ومن الثورات التي شهدتها مختلف العلوم الاجتماعية والإنسانية في النصف الثاني من القرن العشرين، وتلك التي عصفت بطبيعة مختلف الفنون الجميلة ووظائفها في مجتمع الحداثة، ومابعد الحداثة، أقول إن تصورًا كهذا يمكن أن يجعل النقد الأدبي قادرًا على تأدية وظيفته الحيوية في مراقبة عملية الإنتاج الأدبي الجديد في المجتمعات العربية الحديثة والمعاصرة، وفي التعامل مع هذا الإنتاج، بل إنه ربما يسهم على نحو غير مباشر في إلهام النقد الثقافي ليتدبر بدوره ضروب الإنتاج الثقافي الأخرى التي هي من شأنه.

وحقيقة الأمر أن ما يغفر لدعاة النقد الثقافي في المجتمعات العربية الحديثة والمعاصرة حماسهم المسرف له إنما هو ما حققه «النقد الثقافي» في الغرب، بل في العالم كله، بوصفه جزءًا من «الدراسات الثقافية»، ولهذا رأوا فيه الحل السحري لجميع مشكلات النقد الأدبي العربي الحديث، غافلين عن أن هذا النقد الثقافي – على أهمية ما حققه من إنجازات– لم يبلغ دور النقد الأدبي في المجتمعات الغربية وغير الغربية التي ازدهر فيها، بل إن النقد الأدبي قد شهد في هذه المجتمعات ازدهارًا مماثلاً، وهو لايزال يقوم بالكثير من الوظائف التي يوّد دعاة النقد الثقافي في الوطن العربي أن يُسنِدوها إلى النقد الثقافي.

والخلاصة أن لكلٍّ من النقد الأدبي والنقد الثقافي شأنًا يغنيه، ولا يغني أيًّا منهما عن الآخر، والمسألة موجودة في صدور أي نظام أدبي منشود يتجسّد في نظرية أدبية أو نقدية عن النتاج الخاص بأدب الأمة المعنية التي يُفترض بهذا النظام أن يحكمه ويفسره ويوجهه، لا في محاكاة النظم الأدبية الأخرى الخاصة بالتقاليد الأدبية والتي تصدر عنها.

فالنص الأدبي – بوصفه مادة الدرس النقدي– هو ما يملي قواعد درسه، وتلك قاعدة ذهبية ينبغي على كل منشغل بالأدب أن يستحضرها كلما جلس بين يدي هذا الفن الجميل الذي ندعوه «الأدب» ليتدبر شأنًا من شئونه.

غير أن هذه القاعدة الذهبية ينبغي أن تستند دومًا إلى مهاد معرفي يمد الملتزم بها بما ينبغي من معرفة تعينه على تدبُّر هذا النص، بصرف النظر عما اختاره من منظور أو مقاربة أو منهج. وهذا ماغاب عن بعض العاملين في ميدان النقد الثقافي العربي الذين تلقفوا الثمرة وغضوا الطرف عن الشجرة التي أنبتتها؛ ذلك أن النقد الثقافي – كما تقدّم– إنما ولد ونشأ وترعرع في حضن الدراسات الثقافية، والدراسات الثقافية في العالم إنما انبثقت من بريطانيا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، واكتسبت اسمها في مطلع الستينيات، ومعنى هذا أنها مدينة بنشأتها وتطورها لعوامل تاريخية شهدتها بريطانيا في تلك الفترة، ربما كان من أهمها نهوض الطبقة العاملة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، والرخاء الذي نعمت به في أثناء ذلك، وما أنتجه هذا الاهتمام بدوره من أشكال ثقافية فرضت نفسها على دارسي النقد الأدبي في بريطانيا الذين استخدموا أساليبه وتقنياته في تدبر هذه الأشكال، ولكنهم في الوقت نفسه تجاوزوها إلى أدوات وتقنيات وأساليب تحليل استمدوها من العلوم الاجتماعية والتاريخ، ولاسيما التاريخ الاجتماعي. ولذا وقع هؤلاء في إشكالات عديدة في ممارستهم لهذا النقد بسبب غياب البعد المعرفي المتصل بهذا النقد عن عملهم.

وإنه لمن المؤسف حقًا أن جلّ من كتب في النقد الثقافي بالعربية غابت عنه جملة من الحقائق[٨] التي لابد من استيعابها حتى يتم استيعاب معطيات هذا النقد، والإفادة منها في تدبُّر مختلف الأشكال الثقافية التقليدية والحديثة والمعاصرة والراهنة والتي أنتجتها المجتمعات العربية عبر العصور المختلفة،

محفزة بشروط وظروف حكمت إنتاج هذه الأشكال مثلما حكمت استهلاكها من جانب فئات هذه المجتمعات، وتتمثل تلك الحقائق التي غابت عن النقد الثقافي العربي في:

أولًا: ارتباط ظهور هذا الضرب من الدراسات بتطورات المجتمع البريطاني في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية؛ فقد كانت الدراسات الثقافية عندها ومنذ ذلك الوقت – على حد تعبير ستيوارت هول – «تأقلمًا مع بيئتها، لقد كانت ممارسة تأملية، وتطوّرت دائمًا من منبت مختلف عن الدراسات المتداخلة المعارف Interdisciplinary Studies، وعن الحقول المعرفية Disciplines»[٩].

والمتتبع للتاريخ البريطاني الحديث يستطيع أن يتبين بسهولة أن هذه العقود قد شهدت صعود الطبقة العاملة فيها وتنامي دورها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي؛ حيث عني اتحاد النقابات العمالية بتعليم الكبار من هذه الطبقة، في حين عملت الدولة على تقديم منح دراسية سخية للمتفوقين من أبناء هذه الطبقة، ويسرت بذلك انتقالهم إلى صفوف الطبقة الوسطى. وكان أبرز حصيلة لهذه التطورات ظهور أشكال ثقافية جديدة ونتاجات ثقافية وأدبية جديدة لمبدعين من الطبقة العمالية، فضلاً عن ظهور منظمات ومؤسسات ترعى هذا النتاج الجديد. ويستطيع المرء أن يشير في هذا السياق إلى ظهور أعمال لروائيين ومؤلفين مسرحيين ينتمون إلى الطبقة العمالية من أمثال: ألن سيليتو، وشيلاغ ديليني، و جوان ليتيلوود صاحب ورشة المسرح، وكلايف بيكر، وأرنولد ويسكر صاحبي مشروع مركز ٤٢، وتشارلز بيكر صاحب بلادات الإذاعة The Radio Ballads، مما بات يعرف بجيل الـ Generation ١٩٥٦[١٠]، وإلى انتشار الأغاني الشعبية الذي عززته صناعة مرافقة أسهمت في الترويج للموسيقى الشعبية، مما أخضع مفهوم الثقافة إلى مساءلة شديدة، فحواها أنه ليس ثمة من مفهوم جامع لمختلف أشكالها التي غدت في غاية التنوع، ومعنى هذا أنها لا تشكل ذاتًا متميزة بخصائص محددة مُجمع عليها من جانب مختلف التشكيلات الاجتماعية في المجتمع البريطاني. لقد باتت الثقافة في نظر دارسيها المعاصرين – كما تصفها سوزان بازنيت أستاذة الأدب المقارن والدراسات الثقافية في جامعة ووريك– شبكة معقدة من الأنظمة المختلفة، إنها «برج بابل» من اللغات المختلفة[١١].

ثانيًا: العوامل المختلفة التي شكلت الدراسات الثقافية البريطانية وحكمت مسارات تطورها عبر ما يقرب من نصف قرن، وربما كان من أبرز هذه العوامل:

* أعمال مجموعة مؤرخي الحزب الشيوعي التي سعى أعضاؤها الذين تخرّج معظمهم في جامعتي كامبريدج أو أكسفورد، إلى خدمة قضايا الطبقة العمالية من خلال نشر الوعي بأهمية دورها في صنع التاريخ البريطاني، وذلك بنشر دراسات تنظر إلى التاريخ من القاعدة إلى القمة، وتعنى بشكل خاص بالتاريخ الاجتماعي لبريطانيا، بغرض تقديم تفسير ماركسي للتاريخ الإنكليزي والبريطاني. وبعبارة أخرى لقد جهد مؤرخو الحزب الشيوعي ليخدموا من خلال عملهم هذا الطبقة العمالية وذلك بتقديم تاريخ كلي Total History، وتاريخ من القاع إلى القمة History from Below، يعنى بها وبغيرها من الطبقات الدنيا في المجتمع، حتى يكون تاريخًا للشعب من وجهة نظره[١٢].

* أعمال الرواد الأوائل في ميدان الدراسات الثقافية الذين شكلت نصوصهم المنطلقات الأساسية لهذه الدراسات في العقود القادمة، والتي تضم كتاب ريتشارد هوغارت «فوائد معرفة الكتابة والقراءة The Uses of Literacy» (١٩٥٧)، وكتاب ريموند ويليامز «الثقافة والمجتمع Culture and Society» (١٩٥٨)، و كتاب بي. إي، تومبسون «صنع الطبقة العاملة الإنكليزية The Making of English

Working Class» (١٩٦٣). وأهم ما قدمته هذه الكتب هو الترويج لمفهوم في الثقافة مباين تمامًا لما كان سائدًا في التاريخ الثقافي البريطاني، من أن الثقافة هي الثقافة العليا للنخبة التي تحمل هوية الأمة وتجمع ما بين أفراد الدولة القومية. وخلاصة مفهوم هؤلاء الروّاد للثقافة هو أن الثقافة «تتعلق بطريقة الحياة برمتها، ومن ثَم فإنها ليست امتيازًا لأية طبقة محددة، أو أي نخبة فكريه»[١٣].

وقد كان لاعتقادهم الجذري هذا تأثير هائل وفوري في التقليد الأدبي البريطاني الذي احتفظ بعناية ملحوظة بالوضع الأخلاقي للثقافة، ولكنه استبعد منها الأشكال الثقافية التي كان ينتجها الشعب، مفضلاً عليها ما تنتجه النخبة المرتبطة أساسًا بطبقة النبلاء والطبقة الأرستقراطية أو طبقة السادة، وربما كان أوضح مظهر لهذا الانقسام في المجتمع البريطاني، أن البرلمان البريطاني يضم – حتى يومنا هذا – مجلسين هما مجلس العموم House of Commons الذي يمثل الشعب بطبقاته الوسطى والدنيا، ومجلس اللوردات House of Lords الذي يمثل الطبقة العليا في هذا المجتمع.

ولكن منطلق هؤلاء الرواد كان ما تعلموه على يد إف. آر. ليفينز، وهو أبرز نقاد الأدب والثقافة في تلك المرحلة، وأشدهم بأسًا في الدفاع عن ثقافة النخبة مقابل الثقافة الشعبية popular culture التي رأى فيها تهديدًا للثقافة الإنكليزية العليا English high culture، غير أن انطلاقهم من النقد الأدبي لم يمنعهم من السعي الحثيث لتجاوز ما انطوى عليه من نزعات: شكلية Formalism، ونخبوية Elitism، وجمالية Aestheticism. وقد تحقق لهم ذلك بالالتفات إلى المتلقي، وبالتحديد: الجمهور– القارئ، ومحاولة الإجابة على أسئلة من مثل: من الذي يقرأ النص؟ وأين؟ ومتى؟ وكيف ولماذا؟ وهي المسائل التي تُجوهلت من جانب الدراسة الأدبية التقليدية.

وهكذا فإنهم وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الالتفات إلى العلوم الاجتماعية، كعلم الاجتماع، والإثنوغرافيا، والتاريخ، والتاريخ الاجتماعي حتى يتمكنوا من وضع النص في السياق الذي يبرر الاستجابة الجماهيرية من جانب، ويوضح معنى القراءة لهذا النص من جانب آخر، بوصفهما شكلين من أشكال الثقافة التي ينتجها نشاط المجتمع برمته، مع اهتمام خاص بالتجربة الفردية، أو بالذاتية، كما أنها تعاش على نحو فعال يسهم في خلق الثقافة[١٤].

* أعمال مجموعة كبيرة من المفكرين الماركسيين الأوربيين التي تَوسّط اليسار الجديد في إتاحتها – من خلال مجلة «اليسار الجديد New Left Review»، ودار النشر المرتبطة بها «فيرسو Verso»– للعاملين في ميدان الدراسات الثقافية، ولاسيما أعمال أنطونيو غرامشي ولوي ألتوسير ومدرسة فرانكفورت، وهو ما أكده ستيوارت هول، أبرز منظري الدراسات الثقافية في مرحلتها المتقدمة –مرحلة البنيوية، ومرحلتها الراهنة: مرحلة ما بعد البنيوية والمادية الثقافية– عندما كتب في مقالته «انبثاق الدراسات الثقافية وأزمة العلوم الإنسانية»: «دون هذه النصوص الأوربية والتي لم يكن أحد يقرؤها ضمن المؤسسة الأكاديمية؛ فإن الدراسات الثقافية لم تكن لتطور مشروعها، لم تكن لتبقى حية، ولم تكن لتصبح ميدان عمل بكل معنى الكلمة»[١٥].

ثالثًا: دور المؤسسات البحثية والجامعية ومؤسسات النشر في نشأة هذا الضرب من الدراسات، وفي تطوره، وفي انسرابه في مختلف المسارات. ففي مجال المؤسسات البحثية يستطيع المرء أن يشير إلى الدور الذي أداه مركز جامعة بيرمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة[١٦] في تعزيز مكانة هذه الدراسات في الجامعات والأكاديميات العلمية في بريطانيا بشكل خاص، وخارجها بشكل عام. أما في مجال النشر الأكاديمي والثقافي فيمكن أن يشار إلى مايسرته دور مجلة «اليسار الجديد New Left Review» الشهرية،

ومجلة «الشاشة Screen»، والمجلات الأخرى الكثيرة[١٧] التي تتصدر المشهدين الجامعي والثقافي في عالم إنتاج المعرفة الإنسانية، من فسح للتفاعل مابين أفكار اليسار البريطاني الجديد والماركسية الأوروبية، والفكر الفلسفي والإنساني عامة.

وأما في مجال نشر الكتب فيمكن الحديث – على سبيل المثال لا الحصر– عن دار النشر «فيرسو Verso» الملحقة بمجلة اليسار الجديد، وعن دور نشر عديدة من أمثال «مطبعة جامعة أكسفورد»، و«دار النشر الجامعي أرنولد Arnold»، ودار النشر العالمية «روتلدج Routeledge»، ودار النشر «بلاكويل Blackwell» المعروفة بسلسلة مكتباتها في مختلف الجامعات البريطانية، ودار النشر الدولية «ساغا SAGA» المشهورة بعنايتها بالعلوم الاجتماعية والسياسية، وما تنشره من سلاسل كتب لا تتصل فقط بالثقافة البريطانية، بل تتناول كذلك الثقافات القومية الأوربية: الفرنسية، والألمانية، والإيطالية، والروسية، والأمريكية، والأمريكية اللاتينية، وغيرها، وتسعى إلى دراسة مختلف جوانب الأشكال الثقافية الرسمية والشعبية التي تنتجها هذه الثقافات بمختلف الأدوات.

رابعًا: ما خضعت له الدراسات الثقافية البريطانية من تطورات مضت بها من مرحلة النزعة الثقافية Culturalism في عقد الستينيات التي تم فيها الربط الوثيق بين الثقافة والمجتمع، إلى مرحلة النزعة البنيوية Structuralism والتي سادتها الخلطة الماركسية–البنيوية، أو البنيوية الماركسية، ولاسيما أفكار ليو ألتوسير، وأنطونيو غرامتشي وغيرهما، إلى مرحلة النزعة ما بعد البنيوية Post–structuralism، والمادية الثقافية Cultural materialism اللتين سادتا الدرس الثقافي والنقد الثقافي منذ عقد الثمانينيات.

وإلى جانب كل ماتقدّم هناك التطورات التي لحقت الدراسات الثقافية في مختلف أنحاء العالم، بعد انتشار ما يمكن دعوته بالدراسات الثقافية القومية، والإقليمية، والقارية. فقد توسعت دائرة اهتمام هذه الدراسات لتشمل قضايا من مثل قضية السكان الأصليين (في أستراليا والأمريكيتين)، وقضية المهاجرين (في أوروبا بشكل خاص)، وقضية الدين (في مختلف مواقع انتشار المهاجرين المسلمين في الأمريكيتين وأستراليا وأوروبا)، وقضية العرق (ولاسيما في أمريكا الشمالية وأوربا)، وقضايا المرأة ومختلف أشكال التمييز التي يشهدها عالمنا المعاصر، عالم العولمة والانتقال والمهاجرة والمنافي.

خامسًا: علاقة هذه الدراسات الثقافية بـ «الآخر» وذلك عندما يتصل تدبّرها بتعلم لغة هذا «الآخر»، فتعلم الإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية في بلدان تقع خارج دائرة الناطقين بهذه اللغات على سبيل المثال، وما يتطلبه التواصل فيها من وعي كاف بالسياق الذي تستعمل فيه، يقتضي اللجوء إلى دراسة مختلف وجوه الحياة الخاصة بالناطقين بهذه اللغات، ومعرفة المؤسسات العاملة في مجتمعاتها، وتبين مختلف أشكال الثقافة المنتجة من جانب تلك المجتمعات، ومن ثَمَّ إلى ضرورة إدراج مساقات تعنى بالثقافات المعاصرة المنتجة بهذه اللغات وفي مجتمعاتها المختلفة.

وفضلاً عما تقدم فقد أثّرت هذه الدراسات في دراسة الآداب القومية المتصلة بها، وبخاصة بعد تبدد الحدود الفاصلة بين الثقافة العليا، والثقافة الشعبية، ومن ثم خضع النقد الأدبي الذي يتدبر هذه الآداب إلى تحوّلات جذرية منهجيًا وتقنيًا ينبغي أخذها بالحسبان عند التفكير بالإفادة من تجارب الأمم الأخرى في تدبّر أدبها وثقافتها.

ومن هنا يأتي هذا الجهد المتواضع لتقديم هذا النقد للقارئ العربي، علّه يستعين به على استكشاف آفاقه الرحبة الواعدة. فأما مصطلح النقد الثقافي فإنه –بوصفه ترجمة حرفيه للمصطلح الإنكليزي Cultural Criticism– يرتبط بمصطلح

الدراسات الثقافية Cultural Studies بعلاقة وثيقة، بل عضوية. والمصطلح الأخير -كما تقدمت الإشارة- قد استعمل أول[١٨] ما استعمل في مركز جامعة برمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة الذي أنشأه فيها ريتشارد هوغارت[١٩] عام ١٩٦٤، ثم دعا إليه ستيوارت هول Stuart Hall الذي تولى إدارته بعد انتقال هوغارت إلى منظمة اليونيسكو، وغدا بفضلهما بؤرة لضرب جديد من الحراك الثقافي الذي انصرف إلى دراسة مختلف أشكال المنتجات الثقافية التي أفرزتها تطورات مابعد الحرب العالمية الثانية في بريطانيا، وتدبُّرها من منظور ديموقراطي. وهو ما نلمحه بشكل خاص في توليده موجة من الانتقادات الجذرية لمفهوم الثقافة السائد في أوروبا حتى ذلك الحين، بوصفه مفهومًا نخبويًا يستبعد الكثير من المنتجات الثقافية المهمة والمؤثرة في حياة المجتمعات الأوربية في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية. ولذلك دعا محفِّزو هذه الموجة وموجهوها إلى وضع المنتجات الثقافية -عند دراستها وتحليلها وتفحص طبيعتها ووظيفتها في إطار أوسع من السياقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية- إلى تبيُّن صلة هذه المنتجات فيما بينها بشكل خاص من جهة، وصلاتها بالبنى الأخرى في المجتمعات الإنسانية من جهة أخرى.

وربما كان من أهم ما يميز الدراسات الثقافية التي أطلقها مركز جامعة برمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة أنها دراسات منفتحة على مختلف العلوم الإنسانية والمعارف والحقول المعرفية الأخرى من جهة، مثلما هي منفتحة من جهة أخرى على مختلف المنظورات والمناهج والمقاربات، مفصحة بذلك عن غنى الظاهرة الثقافية، وتشعب صلاتها بمختلف وجوه الحياة الإنسانية، بل عمق تغلغلها في هذه الحياة، ورسوخها في البنى الذهنية للتفكير في مختلف المجتمعات الإنسانية.

ما الذي يختلف فيه النقد الثقافي عن الدراسات الثقافية؟

الحقيقة أن البريطانيين من دارسي الثقافة ونقادها لا يميزون في دراساتهم ما بين المصطلحين وكثيراً ما يستخدمونهما على نحو متبادل، مع أنهما يشيران إلى شيئين مختلفين تمامًا:

أما «النقد الثقافي» فإنه يشير إلى تحليل الأدب -بما في ذلك الأدب الشعبي Popular Literature- وأشكال الفن الأخرى -بما فيها الرسم والعمارة والنحت والرقص والموسيقى والمسرح والفن السابع وفن الرسوم المتحركة- ضمن سياقاتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، مستلهمين في ذلك علم الاجتماع والفكر الفلسفي المادي، ولاسيما الماركسية. أما مصطلح «الدراسات الثقافية» فإنه يشير إلى الدراسة المتداخلة المعارف Interdisciplinary للظواهر الثقافية المعاصرة، والتي تُعنى أساسًا بالصلات المتبادلة بين إنشاءات إنسانية متنوعة.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فإن الدراسات الثقافية التي نشأت في الثمانينات من القرن الماضي، وازدهرت أيما ازدهار في العقود اللاحقة، تنصرف إلى الدراسات متداخلة المعارف Interdisciplinary Studies لمختلف أشكال الثقافة المعاصرة، بصرف النظر عن مكانة منتجيها الاجتماعية والاقتصادية، بينما ينصرف النقد الثقافي إلى تدبّر النصوص الأدبية والتركيز على الشأن الفني فيها. ومعنى هذا أن المصطلحين متمايزان تمامًا في الممارسات الأمريكية، وهو مايؤكده آرثر آسا بيرغر صاحب كتاب «النقد الثقافي»[٢٠] عندما يشير إلى أن النقد الثقافي «نشاط Activity»، وليس «حقلاً معرفيًا Discipline» بالمعنى الضيق للكلمة، والنقاد الثقافيون يطبقون مفاهيم ونظريات -في أضمومات وطفرات متنوعة- على فنون النخبة مثلما يطبقونها على الثقافة الشعبية والحياة اليومية ومجموعة من

الموضوعات ذات الصلة. وهكذا فإن النقد الثقافي – فيما يرى بيرغر– تعهُّدٌ، أو مشروع متعدد المعارف ومتداخل المعارف ومعرفة عن المعارف ومجموعة معارف. إنه نشاط يتصل بالنظرية والنقد الجماليين والأدبيين وبالفكر الفلسفي وبتحليل الوسائط وبنظريات التفسير وبمعارف كالسيميائيات والتحليل النفسي والنظرية الماركسية والنظرية الاجتماعية والأنثروبولوجية وغيرها، وبدراسات التوصيل ووسائط الاتصال الجماهيري، وهو نشاط يتوخى تحقيق هدف نبيل هو فهم الثقافة المعاصرة، وغير المعاصرة بمختلف أشكالها؛ وذلك من خلال تفحص الظاهرة الثقافية في شبكة علاقاتها بالظواهر الثقافية الأخرى في المجتمع، والخروج باستنتاجات معينة عن التغيرات التي خضعت لها خلال فترة من الزمن.

غير أن ما يجمع ما بين الدراسات الثقافية والنقد الثقافي على شاطئي الأطلسي هو النظر إليهما من جانب العاملين في هذا الميدان على أنهما ممارسة Practice، أو نشاط Activity، وبسبب اتصال هذا النشاط بالثقافة التي تتنوع أشكالها ومفاهيمها بين مجتمع وآخر، وبين أمة وأخرى، وبين عصر وعصر؛ فإن من الصعوبة بمكان اقتراح تعريف جامع مانع مجمع عليه للدراسات الثقافية أو النقد الثقافي. ذلك أن الدراسات الثقافية ليست حركة موحدة، متسقة على محو محكم، أو ذات أجندة، أو جدول أعمال ثابتة، بل هي – كما يشير مؤلفو «دليل المقاربات النقدية للأدب» (الطبعة الرابعة، مطبعة جامعة أكسفورد، أكسفورد، ١٩٩٩)[٢١] – «مجموعة من النزعات Tendencies، أو الميول والمسائل والقضايا تتمتع بحد أدنى من التماسك والانسجام الفضفاضين، فضلاً عن أنها مؤلفة من عناصر متنوعة من الماركسية، والنزعة التاريخية الجديدة، والنزعة النسوية، والدراسات الجنوسية Gender Studies، والأنثروبولوجيا، ودراسات السياسة العامة، ودراسات الثقافة الشعبية، والدراسات الحضرية». وبعبارة أخرى، إن الدراسات الثقافية والنقد الثقافي معنيان «بالتركيز على القوى الاجتماعية والثقافية التي تصنع المجتمع الإنساني، أو تسبب الانقسام والتغريب فيه»[٢٢].

ومصطلح الدراسات الثقافية، كما يعرفه «مسرد المصطلحات الأدبية» الشهير لـ أبرامز وهاربام، يشير «إلى مشروع عبر معارفي –cross disciplinary حديث العهد ومتنام على نحو واسع لتحليل الشروط التي تؤثر في إنتاج جميع أنماط المؤسسات والممارسات والمنتَجات الثقافية واستقبالها وأهميتها الثقافية، ومن بينها الأدب الذي يعدُّ مجرد واحد من الأشكال العديدة للممارسات الثقافية الدالة. وموضع العناية الرئيسة لهذا المشروع تحديد الأداء الوظيفي للقوى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية وبنى السلطة التي يقال إنها تنتج الأشكال المتنوعة للظواهر الثقافية، وتمنحها معانيها الاجتماعية وحقيقتها وأنماط الإنشاء الذي تُناقَش فيه وقيمتها ومنزلتها النسبيتين»[٢٣]. والنقاد الثقافيون –كما يوضح ذلك مؤلفا «مسرد بيدفورد للمصطلحات النقدية والأدبية»– يتفحصون: «كيف ينبثق الأدب – ضمن ثقافة معينة – من أشكال أخرى من الإنشاء (مثل الدين، أو العلم، أو الإعلان)؟ وكيف يؤثر فيها ويتنافس معها؟ إنهم يحللون السياقات الاجتماعية التي كُتب فيها نص معطى، وتحت أية شروط أنتج، أو يُنتج، وانتشر وقُرئ. وهم –مثل غيرهم من ممارسي الدراسات الثقافية– يعارضون الرأي القائل بأن الثقافة تشير –على نحو إقصائي– إلى الثقافة العليا؛ أي الثقافة Culture بحرف «C» كبير، ساعين إلى جعل المصطلح يشير إلى الثقافة الشعبية والتراث الشعبي والثقافة الحضرية والثقافة الجماهيرية (المنتَجة والمنتشرَة والمتوسَّطة والمستهلَكة جماهيريًا)، وكذلك إلى تلك الثقافة

التي نربطها بما يدعى الأدب العظيم. وبكلمات أخرى، يحاجج النقاد الثقافيون أن ما نشير إليه على أنه ثقافة هو في الحقيقة مجموعة من الثقافات المتفاعلة، الحية والمتغيرة أكثر منها ساكنةً وأُحادية. إنهم يفضّلون تحليل الأعمال الأدبية ليس بوصفها موضوعات جمالية تامة بذواتها، وإنما بوصفها أعمالاً ينبغي أن تُرى من خلال صلاتها بأعمال أخرى، أو بالشروط الاقتصادية، أو بالإنشاءات الاجتماعية الواسعة (عن ولادة الأطفال، وتعليم المرأة، والانحطاط الريفي.. إلخ)»[٢٤]؛ ولذلك «ألح النقاد الثقافيون على ما دعاه المنظِّر الفرنسي دو سيرتو De Certeau (ممارسات الحياة اليومية)، مقاربًا الأدب بوصفه دارسًا أنثروبولوجيًا أكثر من كونه ناقدًا أدبيًا نخبويًا تقليديًا»[٢٥]. لقد طالت مناجزت النقاد الثقافيون كل مظاهر الهيمنة التي تعتز بها المؤسسة الثقافية القائمة، وهكذا نراهم أحيانًا يفنِّدون في معرض صراعهم مع التعريفات التقليدية للثقافة لما يشكِّل ثقافة: «التعريفات التقليدية لما يشكِّل القانون الأدبي (The Literary Canon)؛ أي تلك الأعمال التي تُمنَح مكانة خاصة من جانب ثقافة معينة (الكلاسيكيات، أو الكتب العظيمة). وبحق فإن هؤلاء النقاد ينتقدون فكرة القانون الأدبي ذاتها، بدلاً من السعي إلى إحلال قانون أدبي مضاد محل القانون التقليدي، أو إضافة كتب (أو أفلام أو موقف هزلي sitcom) إلى القائمة القديمة للنصوص التي ينبغي أن يعرفها افتراضًا كل شخص مثقف culturally literate»[٢٦].

ومن ثَمَّ فإنهم يسعون إلى أن يكونوا وصفيين descriptive أكثر من كونهم مُقيِّمين evaluative. إنهم يسعون إلى أن يقيموا الصلة بين المُنتجات والأحداث الثقافية أكثر مما يسعون إلى تقديرها. وكذلك فإنهم يهدفون إلى اكتشاف الأسباب (السياسية غالبًا): لِمَ يُثمَّن عاليًا مُنتَج جمالي أو ثقافي ما، أكثر من مُنتَج آخر. (المرجع السابق، ص ٨٥). كما يرون أن أي تمييز بين الثقافة العالية والثقافة الشعبية والثقافة الجماهيرية قد تداعى بعد الحرب العالمية الثانية. (المرجع السابق، ص ٨٥)

وهكذا أخضع النقاد الثقافيون هرميات قيمة Value Hierarchies أخرى للمساءلة، فانتقدوا على سبيل المثال المؤسسة الجامعية بوصفها المسؤولة عن تعريف الثقافة العليا في المجتمع، كما انتقدوا الحدود الاصطناعية التي تقيمها الجامعات بين الكليات والأقسام، أو تلك التي تفصل ما بين دراسة الفنون ودراسة التاريخ، بلْهَ دراسة التلفزيون والإعلان والصحافة والتراث الشعبي والشئون الراهنة والنميمة؛ ذلك أن الجامعة بمحافظتها على هذه الحدود المصطنعة إنما تعزز الهوة الفاصلة بين الثقافة العليا والثقافة الدنيا.

ومما تبيَّن للنقاد الثقافيين أيضًا أن الجامعات عندما ربطت ضمنًا الجماليات بالأدب، والدعاية بالإعلان؛ فقد أقرَّت ضمنًا أيضًا بوجود جانب دعائي في الأدب، مثلما أقرت ضمنًا بوجود جانب جمالي في الإعلان؛ ولهذا فإنهم مزجوا بين الإجراءات التحليلية التي طورتها علوم ومعارف عديدة، مركزين على الوعي الإنساني أكثر من تركيزهم على كتلة من الأعمال التي يُفترض أن تعكس ثقافة معينة.

والخلاصة أن النقاد الثقافيين يسعون إلى فهم الوعي الإنساني ذاته، والتدليل على أن هذا الوعي تُشكّله على وجه الإجمال قوى ثقافية في المجتمع الإنساني. وقد أفاد النقاد الثقافيون من نتاجات كلٍّ من: فردينان دو سوسير، وكلود ليفي شتراوس، ورولان بارت، وجاك لاكان، وجاك ديريدا، كما أفادوا من نتاج كبار أعلام الماركسية في القرن العشرين من أمثال: والتر بنيامين، وأنطون غرامتشي، ولوي ألتوسير، وإ. ب. تومسون، وريموند ويليامز، وتوني بنيت، ومن ميخائيل باختين، وميشيل فوكوه وغيرهم. وكذلك فقد وجدت الدراسات

النسوية -ولاسيما في تحدّيها للقيم الذكورية- في الدراسات الثقافية خير عون وتداخلت معها (مفيدة في هذا السياق من أعمال إدوارد سعيد، وغاياتري شاكرافورتي سبيفاك، وهومي بابا .. وغيرهم).

وعلى أي حال يمكن أن نخلص إلى القول إن مقاربات الدراسات الثقافية -وكما يؤكد مؤلفو دليل المقاربات النقدية للأدب[٢٧]- تشترك عامة في أربعة أمور:

أولها: أن الدراسات الثقافية تتجاوز حدود حقل معرفي معين مثل النقد الأدبي أو التاريخي. وقد تتضمن منهجيتها التحليل النصي والسيميائيات والتفكيك والإثنوغرافيا والتحليل اللساني والتحليل النفسي، فضلاً عن المقابلات؛ ذلك أن غنى الظاهرة الثقافية يُحتِّم تدبُّرها من وجهات نظر مختلفة، ومن ثَم، الاستعانة بما أمكن من العلوم والمعارف الإنسانية. وتبعًا لممارسي الدراسات الثقافية، فإن الأعمال الفكرية لا يمكن -ولا ينبغي لها- أن تتوقف عند تخوم النصوص الفردية، أوالمشكلات التاريخية، أو الحقول المعرفية، وصلات الناقد الخاصة بما يجعلها هي بالفعل جزءًا من هذا التحليل.

ثانيها: أن الدراسات الثقافية ملتزمة من الناحية السياسية، فممارسوها يقفون دائمًا في موقع المعارض للمؤسسة القائمة؛ ولذلك فإنهم غالبًا مايكونون مرتبطين باليسار سياسيًا، وبالفلسفة الماركسية فكريًا. هذا وينظر الثقافيون إلى أنفسهم على أنهم معارضون لبنى السلطة في المجتمع، وهم يسائلون باستمرار عدم المساواة بوصفها ممارسة ضمن بنى السلطة، بما في ذلك قاعة الدرس، ويسعون إلى إعادة بناء الصلات فيما بين الثقافات المهيمنة والثقافات التابعة. ولأن المعنى، والذات الفردية، يُنشآن ثقافيًا؛ فإنه يمكن لذلك أن يُعاد إنشاؤهما. والدراسات الثقافية، عندما تُتَبنّى إلى حد التطرف، تُنكِر استقلال الفرد، سواء أكان شخصًا أم عملاً أدبيًا.

وهذا يشكل دفعًا أو ردًا لمقاربتي «الإنسان العظيم» و«الكتاب العظيم» ذاتا النزعة الإنسانية، وينقل علم الجمال والثقافة من الممالك المثالية للذوق والحساسية إلى حلبة الحياة اليومية للمجتمع بوصفه كلاً، وإلى «إنشاءاته العامة Common Construction».

ثالثها: أن الدراسات الثقافية تنكر أي فصل بين ثقافة عليا وثقافة دنيا، أو بين ثقافة النخبة والثقافة الشعبية؛ فجميع أشكال الإنتاج الثقافي تحتاج إلى دراستها من خلال صلتها بالممارسات الثقافية الأخرى. والدراسات الثقافية ملتزمة بتفحص مجال معتقدات مجتمع ما ومؤسساته وممارساته التوصيلية، بما في ذلك الفنون برمتها. ولطالما دُرست الثقافة الشعبية في الجامعات، ولكنها لم تدرس بالكثافة أو التحليل المتقدم الذي تتلقاهما اليوم. والدراسات الثقافية - كما يراها بعض الباحثين- هي الطريق إلى إعادة تواصل الجامعة مع الجمهور، مع تحطيم معرفي مضاد للعوائق الفكرية.

رابعها: أن الدراسات الثقافية لا تحلل العمل الثقافي الذي أنتج فقط، بل تحلل أدوات الإنتاج أيضًا؛ فقد تبين النقاد الماركسيون منذ زمن طويل أهمية المسائل المحايثة للأدب مثل: من يدعم فنانًا معنيًا؟ ومن ينشر كتبه أو كتبها؟ وكيف توزع هذه الكتب؟ ومن يشتري الكتب؟ وكيف تُسوَّق؟

وهكذا فإن الدراسات الثقافية تجمع ما بين «الذاتية subjectivity»؛ أي الثقافة في صلتها بالحيوات الفردية و«الالتزام engagement»، وهو مدخل مباشر للهجوم على اللامساواة الطبقية في المجتمع. فمن خلال الدراسات الثقافية، ينكر الممارسون «النزعة الإنسانية Humanism»، أو «الإنسانيات The Humanities» بوصفها مقولات صالحة، ويجهدون من أجل ما يدعونه بـ «العقل الاجتماعي Social Reason»، والذي يشبه غالبًا

وبقوة «المثال الديموقراطي الإنساني»[٢٨].

وبعد هذا العرض السريع لنشأة النقد الثقافي في العالم الأنجلو–أمريكي، وصلته بالدراسات الثقافية التي استهوت دارسي المنتجات الثقافية المعاصرة والراهنة في مختلف أنحاء العالم، ربما يطرح القارئ العربي سؤالاً مهمًا في هذا المقام هو: ما موقع النقد الثقافي أو ممارساته في المشهد النقدي العربي الراهن؟

قد تبدو هذه الممارسات من قِبل بعض الباحثين اجتهادات ينبغي أن يُثاب عليها أصحابها بأجر واحد إن لم يكن بأجرين، وهو ما بدا لي منذ سنوات حين اشتركت في المناظرة التلفزيونية مع الدكتور عبدالله الغذامي التي أثمرت لاحقًا كتابًا حمل عنوان «نقد ثقافي أم نقد أدبي؟»[٢٩] الذي ظهر منذ أكثر من عقد من السنين. فقد قبلت اجتهاد الصديق الدكتور عبدالله الغذامي، وناقشته ضمن إطاره المرجعي، وبينت ما اعتور منطلقاته الناجزة من ثغرات، كما وضحت ما وقع فيه من إشكال منهجي عندما اختزل النقد الثقافي بمهمة البحث عن «النسق» الذي أضافه عنصرًا سابعًا إلى أنموذج رومان جاكوبسون في الاتصال اللغوي، دون أن يعرّفه، أو يوضح سبل البحث عنه وفيه؛ ومن ثَمّ مضى بعيدًا عن النقد الثقافي مثلما افترق عن مستن مساراته/دروبه في المشهد النقدي العالمي.

والواقع أن عمل الغذامي الجاد والمخلص الذي ينطوي على تفكير عميق بواقع الأمة، وحرص كبير على تجاوز هذا الواقع، وسعي جاد إلى شفع الهدم بالبناء، واجتهاد جريء لا تعوزه الخبرة، لا يعدو مثل غيره من ممارسات النقاد الثقافيين العرب عن كونه «تحويلة Diversion»، وافتراقًا عن مستن دروب النقد الثقافي في العالم، غير أن ما يميز هذه التحويلة، أو هذا «الافتراق» أنه فعل لا تمليه الضرورة بمقدار ما تمليه الرغبة في الخروج عن السائد في النقد العربي الحديث؛ ولذلك فإنه لا ينتهي، مثل أية «تحويلة»، إلى العودة إلى الطريق الرئيس، إن لم نقل إلى جادة الصواب، ولا يبلغ أيًا من أهداف المضيّ فيها.

إن النقد الثقافي مُنجَز مهم، بل خطير، وهو منجز إنساني. صحيح أن نشأته وتطوره وتحولاته اللاحقة كانت وستظل محكومةً بطبيعة المادة الثقافية موضع عناية الناقد الثقافي مثلما هي محكومة بسياقات ممارساته، غير أنه تجربة إنسانية جديرة بالدراسة والاستيعاب، ومن ثَم الإفادة من حصيلتها في تدبّر المنتجات الثقافية العربية المعاصرة والراهنة، تدبرًا ينطلق من فهم عميق لما يأتي:

* طبيعة هذه المنتجات وصلاتها بطرق الحياة التي اختارتها المجتمعات العربية من جهة، ما دام ريموند ويليامز – كبير سدنة هذا النقد– يتحدث عن الثقافة بوصفها طريقة في الحياة .

* ظروف نشأة هذه المنتجات، وتطورها، ووظائفها، وحدودها، أو صلاتها بالكُلّ الثقافي لكل من هذه المجتمعات من جهة أخرى.

أما التطبيق الآلي لهذا المنجَز على المنتَج الثقافي العربي ووضع هذا المنتج على سرير بروكروست الثقافي–الغربي؛ فإنه لن ينتهي بصاحبه إلا إلى طريق مسدود. وعلى الرغم من أنه قد يبدو لبعض الباحثين اجتهادًا يستحق المغامرة بحَيْده عن مستن الدروب؛ فإن أي غيور على الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة والراهنة يودّ أن يكون اجتهادًا مثمرًا، يغري بالمتابعة، بما يلوح في أفقه القريب قبل البعيد من خدمة مرجوة لهذه الثقافة التي لا تنمو إلا بمنتجيها ومستهلكيها معًا، بوصفهم شركاء في احتضانها فسحة انتماء عصري حقيقي لعالم القرن الواحد والعشرين.

الهوامش

1– Stuart Hall, «**The Emergence of Cultural Studies and the Crisis of the Humanities**», October, Vol.53, **The Humanities as Social Technology**, (summer, 1990), p. 11.

2– Topy Miller, «**What it is and what it is n't: Introducing …Cultural Studies**», in: Topy Miller, (ed.), IN **A Companion to Cultural Studies,** (Blackwell, Oxford, 2001), p.1.

٣- يُنظر كتاب رايموند ويليامز:

Raymond Williams, **Culture,** (Fontana Paperback, London, 1981),

ويُنظر أيضًا كذلك كتاب تيري إيجلتون: **فكرة الثقافة**، ترجمة: شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥.

٤- من الجدير بالذكر أن بعض الدارسين للدراسات الثقافية في بريطانيا –من أمثال روجر برواملي- يعود بها إلى فترة مابعد الحرب العالمية الثانية، انظر:

Roger Bromley, «**Introduction**», «**3 Cultural Studies in Britain**», in: **A Cultural Studies Reader: History**, **Theory, Practice**, Edited by Jessica Munns & Gita Rajan (Longman, London and New York, 1995), pp. 149–153.

في حين يعيدها بعضهم الآخر إلى استدارة القرن الماضي ابتداء من الناقد الإنكليزي المشهور ماثيو أرنولد، مرورًا بـ إف. آر. ليفيز، وحتى ريموند ويليامز، انظر:

Lesley Johnson, **The Cultural Critics From Mathew Arnold to Raymond Williams**, (Routeledge & Kegan Paul Ltd., London, 1979).

٥- انظر كتابه:

Richard Hoggart, **The Uses of Literacy: Aspects of Working–class Life with special reference to publication and entertainment** (Penguin Books, London,1958).

٦- انظر القسم السادس المخصص للنقد في موسوعة الأدب والنقد:

«VI. Criticism», in: **Encyclopedia of Literature and Criticism**, Edited by Martin Coyle, Peter Garside, Malcolm Kelsall, John Peck (Routeledge, London and New York, 1994), pp. 651–805.

٧- انظر مقالة رينيه ويليك René Wellek : «**منظور تاريخي – النقد الأدبي A Historical Perspective: Literary Criticism**»، في كتاب:

What Is Criticism?, Edited with an Introduction by Paul Hernadi (Indiana University Press, Bloomington, 1981), pp. 297–321.

٨- أفدت في عرض هذه الحقائق من مقالتي «**مقدمة في النقد الثقافي**»، المنشورة في: مجلة الموقف الأدبي، دمشق، العدد ٥٢٠، آب ٢٠١٤، ص ٢٣–٢٨.

9– Stuart Hall, «**The Emergence of Cultural Studies and the Crisis of the Humanities**», October, Vol.53, The Humanities as Social Technology, (Summer, 1990), p. 11.

10– Susan Bassnett, «**Introduction: Studying British Culture**», in: **Studying British Culture**, Edited by Susan Bassnett, (Routeledge, London and New York, 2003), p. xvii.

11– Ibid. xvii.

12– **A Dictionary of Marxist Thought**, Second Edition, Edited by Tom Bottomore, Lawrence Harris, V. G. Kiernan and Ralph Miliband (Blackwell, Oxford, 1991), pp. 58–61.

13– Susan Bassnett, «**Introduction: Studying British Culture**», p.xvi.

14– Anthony Easthope, «**But What is Cultural Studies?**», in: **Studying British Culture**, Edited by Susan Bassnett, (Routeledge, London and New York, 2003), p. 5.

15– Stuart Hall, «**The Emergence of Cultural Studies and the Crisis of the Humanities**», October, Vol.53, The Humanities as Social Technology, (Summer, 1990), p. 16.

١٦– يمكن العودة إلى المراجع التالية بغرض معرفة المزيد عن دور هذا المركز في تطوير الدراسات الثقافية البريطانية:

* Michael Green, «**The Centre for Contemporary Cultural Studies**», in: Re–Reading English, Edited by Peter Widdowson (Methuen, London and New York, 1982), pp. 77–90.

* **Key Concepts in Cultural Theory**, Edited by Andrew Edgar and Peter Sedgwick (Routeledge, London and New York, 1999).

* David Harris, **From Class Struggle to the Politics of Pressure**: **The Effects of Gramscianism on Cultural Studies** (Routeledge, London and New York, 1992).

١٧– يمكن أن يشير المرء إلى أبرز المجلات التالية، والتي تنشر أهم الإسهامات المعاصرة في الدراسات الثقافية والنقد الثقافي:

Critical Inquiry, Cultural Studies, Diacritics, Discourse, Feminist Studies, Media, Culture and Society, Representations, Signs, Social Text, Works & Days.

ومن السهل على المرء ملاحظة أن عناوينها تشي باهتماماتها الرئيسة، مثلما تشي باهتمامات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي عامة.

١٨– كما يؤكد ذلك ستيوارت هول في مقالته التي غدت مرجعًا أساسيًا في تاريخ الدراسات الثقافية:

Stuart Hall, «**The Emergence of Cultural Studies and the Crisis of the Humanities**», October, Vol.53, The Humanities as Social Technology, (Summer, 1990), p. 11.

١٩– انظر كتابه:

Richard Hoggart, **The Uses of Literacy: Aspects of Working–class Life with special reference to publication and entertainment** (Penguin Books, London, 1958).

٢٠– انظر:

Arthur Asa Berger, **Cultural Criticism: A Primer of Key Concepts** (Sage Publication, London and New Delhi,1995).

وانظر كذلك ترجمته:

أرثر أيزا برجر: **النقد الثقافي: تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية**، ترجمة: وفاء إبراهيم ورمضان بسطويسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

٢١– انظر:

Wilfred L. Guerin et al., **A Handbook of Critical Approaches to Literature**, 4th Edition (Oxford University Press, Oxford, 1999).

٢٢– انظر **المرجع السابق**، ص٢٤٠.

٢٣- انظر:

M.A. Abrams & Geoffrey Galt Harpham, A Glossary of Literary Terms, Ninth Edition (Wadsworth Cengage Learning, Boston, 2009), p. 65.

٢٤- انظر:

Ross Murfin and Supryia M. Ray, **The Bedford Glossary of Critical and Literary Terms**, Third Edition, (Bedford/ St. Martin's, Boston and New York, 2009), pp. 83–84.

٢٥- نقلاً عن **المرجع السابق**، ص ٨٤.

٢٦- انظر **المرجع السابق**، ص ٨٥.

٢٧- انظر:

Wilfred L. Guerin et al., **A Handbook of Critical Approaches to Literature**, p. 240.

٢٨- انظر المرجع السابق، ص ٢٤٠-٢٤٢.

٢٩- الدكتور عبدالله الغذامي والدكتور عبد النبي اصطيف: **نقد ثقافي أم نقد أدبي؟**، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٤م.